الملك حسين بن علي

الحجاز

حدوده : نجد شمالاً العقبة وامارة شرقي الاردن ، جنوباً القنفذة وجبال عسير ، غرباً البحر الاحمر . اما شرقاً فحدوده مختلف عليها وغير واضحة .

عدد سكانه : نحو ثلاثمئة الف واكثرهم من البدو .

مساحته : نحو خمسة وسبعين الف ميل مربع .

اهم قبائله : حرب وعتيبة وجهينة والحويطات وبنو ثقيف وبنو سفيان .

الاشراف : العبادلة (ومنهم البيت المالك) وذوو حسن وقريش .

اهم مدنه : في الداخل : مكة والمدينة والطائف . وعلى البحر : جدة وينبع والوجه .

مذاهبه : السنة : حنفيون وشوافع . والشيعة : جعفريون وزيديون .



جلالة الملك حسين بن علي

البدو والحضر

التلفون في الحجاز – عربية لا رطانة فيها – قدوم الملك – رسمه وحقيقة محياه – الديمقراطية العربية – العقال والعمامة–الحضر والتترك – تقبيل اليد والركبة–المقامات والقبلات – البدو – خشونة الحرية – التاجر والمقاتل – الملك بين الاثنين – اللغة التي يفهمها البدو – الانكليز – العرب والاسلام – السوريون في اميركا – الملك يدعوهم الى الحجاز .

في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط ١٩٢٢ (٨ رجب سنة ١٣٤٠) وطئت لاول مرة ارضاً في شبه الجزيرة العربية وقابلت ملكاً ما عرف العرب غيره من ملوك العرب . جئت من نيويورك ازوره وفي قلبي بعض التردد مما تصورته في رسمه الذي نشرته الجرائد، وجاء من مكة وفي ذهنه صورة وشهرة جسمها لديه صديقان لي في خدمة جلالته ، هما قسطنطين يني والشيخ فؤاد الخطيب . وقد اجتمعنا في جده يوم وصلت اليها . وكانت اولى دهشاتي فيها ان محافظ المدينة الذي تفضل فلاقاني على الرصيف بلّغ جلالة الملك بالهاتف خبر وصولي.

الهاتف في مكة المكرمة ! ولكنه مستعرَب تماماً . فالحجاز هي البلاد العربية الوحيدة التي لا تسمع فيها آلو آلو . الناس هناك يهتفون ويتحادثون بلغة عربية لا رطانة البتة فيها .

– مركز ، اعطني مكة .

لا ابطاء ، ولا تسويف ، ولا مشاتمة .

– مكة ، محافظ جده يتكلم . الديوان . خير . قل لجلالة الملك . . . خير . . . خير . . . ابشر .

ثم كلمني المحافظ قائلاً : سيدنا لم يتأكد قدومكم في هذه الباخرة ، لذلك لم ينزل لملاقاتكم . ولكنه يجيء اليوم .

وبعد ثلاث ساعات من حديث الهاتف جاء رسول يقول : سيدنا دخل البلد : ثم سمعنا صوت السيارة في الشارع فسارعنا الى باب القصر ننتظر قدوم جلالته وكان قد اجتمع هناك نفر من اعيان جده وعلمائها.

وقفت امام الباب سيارة فخمة فخرج منها ناظر الخارجية؛ ثم ناظر المالية ، ثم الامير زيد ، ثم الملك حسين .

صافحته مسلماً سلاماً عربياً ــ حي الله مولاي بالخير . ولا اذكر بأية كلمة حياني . ولكنني لا انسى اننا في صعودنا الدرج كان يتلطف فيأخذ بيدي لاسير الى جانبه .

دخلنا ردهة الاستقبال في الطابق الثاني ، وهي طويلة تشرف على البحر غرباً وشمالاً . وليس في فرشها ما يمتاز عن فرش البيت ، بيت الضيافة ، الذي انزلت فيه . ان البساطة لتدنو في القصر من التقشف ، فتبدو في السجاد العادي ، وكراسي الخيزران ، والدواوين المغطاة بقماش من القطن ، والجدران العادية الخالية حتى من الآيات ، كأنها تتنازل الى شيء من المدنية اكراماً للزائرين الاجانب فقط... ولكنها الديمقراطية العربية في بعض مظاهرها التي تروق على الخصوص القادمين من البلاد الاميركية . وهناك مظاهر اخرى في ظاهر صاحب الجلالة ، اي في حديثه ، وفي لبسه ، وفي اكرامه الضيف .

من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسّنون في بعض الاحايين صور الناس . ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم . اما رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبا واميركا اثناء الحرب فهو لا يشبهه ، ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها

شيء من الغم ، ومن الجلال المقرون باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

كانت دهشتي الثانية اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلا قطوباً جافاً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . اجل ان في محيّا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأديب الغربي . ولا غرو ، وهو من بني نُمي من سلالة الرسول ، وقد اقـــام عشرين سنة في الاستانة . ان في وجهــه كما في حديثه اذن عنصرين من الانس والكياسة مما غابا ويا للعجب في رسمه ، الاول اخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي فهو رقيق الاديم صافيــه ، عدل الانف دقيقه ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة . وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت اجذب منهــا للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

اما صوته فألطف من النور في عينيه . واما اناملـه فان فيها دليلا افصح واصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الاثيل . وقد كبرت هذه المحاسن في نظري لانها عارية من مظاهر الابهة والجلال . فانك لا تميز الملك عن احد احد مشايخ العرب اذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير اصفر فوق كوفية اخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث ثمين ، وهو عقال بني نُمي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه . واذا اعتمّ الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين احد الاعيان او العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هاك في القيافة مظهراً من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وامرائها .

جلس الملك في زاوية من الديوان واشار الى يمينه فجلست وفيّ بعض

الحياء من التصدر في حضرته . ثم دخل اعيان جده و كبارها مسلمين على صاحب الجلالة ، المنقذ الاكبر ، مهنئينه بقدومه السعيد . فانتهت في سلوكهم الديمقراطية . وغدوت حائراً لا ادري ايبتدىء في الحجاز التترك في البلاد العربية ام ينتهي .

دخل عرب المدينة ، عرب جده ، مطأطئين الرؤوس ، مكتفين ، صامتين ، خاشعين . فكان الواحد منهم يقبل يد الملك مرة ، والاخر مرتين ، والآخر ثلاث مرات . ومنهم من قبل منها الكف والظهر ، ومنهم من زاد على ذلك فقبل الركبة الملكية . وكان جلالته يأذن بذلك ويقبل بعض الزائرين في وجوههم . وقد يسحب يده مانعاً من هم ارفع مقاماً من الجميع ، اي الاشراف العبادلة وهم اقارب الملك الادنون .

ان التقبيل درجات اذن في الاحترام وفي العبودية . وكل من المقبلين والمقبَلين يعرف مقامه فلا يتعداه ، ولا يخجل من ان يعرفه سواه . اجل ، ان بين من يقبل ركبة الملك ومن يقبله الملك في جبينه ، او يمنع عنه يده ، بوناً شاسعاً في المقامات لا يخفى على احد من الناس . واذا خفي على عرب البادية ، على البدو ، فلانهم لا يفهمون هذه الرسميات او لا يكترثون بها .

يجيء البدوي الى البلد فيقف تحت نافذة القصر وينادي «يا بو علي» وهو سامد الرأس ، صريح الكلمة ، لهجته لهجة الاكتفاء والقرناء ، قل هي لهجة ابناء القفار . والملك حسين يقبلها كما يقبل قبلة الاحترام والاجلال من المتمدنين المتتركين . بل يقبل فروض العبودية من الحضر باشاً كما يقبل هاشاً من البدو خشونة الحرية . ولا يتغير في الحالين ، ولا يأمر بتهذيب هذا او بتثقيف ذاك . ايدهشك منه هذا السلوك الملكي النبوي ؟ هو اعلم مني ومنك بامور ملكه وبدعائم السيادة فيه .

ان الحضري عادة تاجر ، والبدوي غالباً مقاتل . والاثنان لازمان ،

فنأخذ من الاول لنعطي الثاني ،ونذل الاول احيانا لنتمكن من الاخذ والعطاء ، ولا سيما اذا كان الثاني خشن الخلق ، صعب الشكيمة ، ويحمل فوق ذلك البندقية. والبدوي لا يفهم غير لغتين، لغة الدينار ولغة السلاح ،بل لغة القوة التي تتمثل في سلاح امضى من سلاحه وساعد اشد من ساعده . اما جلالة الملك حسين فلسوء الحظ لا يحسن في معاملة البدو اليوم غير لغة واحدة هي لغة الدينار .

– البدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء ولكنهم صادقون .
اقول : صادقون . وهم يرعون العهود .

في النصف الثاني من كلام جلالته نظر، بل فيه باب للريب فسيح. الا انه اراد كما علمت بعدئذ غمز قناة الانكليز الذين لا يشبهون البدو في سياستهم وفي عهودهم وقد عاد الى هذا الموضوع مراراً في المقابلات التالية. انه في احاديثه السياسية كثير الالغاز والرموز، قلما يصرح بفكره، وقلما يشرّف عدوه بذكره. ولكنه في الجلسة الاولى لمس من الموضوع اطرافه واستعاض عن البحث بذكر الآيات ورواية الاشعار وهو شغف بالاولى وله حافظة لا تزال على سنه قوية .

كان الكلام في العرب والاسلام ، وكان جلالته يدعم كل ما يقوله بآية او بحديث شريف او ببيت من الشعر – «من اعز العرب اعز الاسلام – اعتصموا جميعا بحبل الله ولا تفرقوا – الاسلام يا حضرة النجيب لا يقاتل غير من اعتدى عليه – لا نحارب الا دفاعا عن انفسنا اقول: دفاعا عن انفسنا . الاسلام يعلم البساطة والصدق والمساواة والقناعة ... وليس ما يمنع المسلمين من الزواج بالمسيحيات. حبذا السوريون لو جاءوا من اميركا واقاموا في الحجاز يتاجرون ويسعدون. اقول: ويسعدون فيساعدوننا في تشييد الملك العربي وتعزيز الوحدة العربية » .

وكنت قد رفعت الى جلالته سلام اخوان لي في نيويورك وتحيات بعض العرب والمستعربين في مصر .

ــ نحن نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم . فقد جئتم من اقاصي البلاد واعظمها ، اقول : واعظمها ، الى بلاد متأخرة فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة . ولكنكم جئتم تلبون دعوة القلب. سمعتم ، يا حضرة النجيب صوت الضمير . عدتم بعد هجرة طويلة الى الاصل . بارك الله فيكم .

في صوت الملك حسين الدمقسي خفوت تضيع عنده الكلمة فيعيدها مثبتاً ممكناً ــ اقول يا حضرة النجيب ــ كذلك يتكلم .

وكان اعيان جده وكبارها جالسين على الدواوين وهم مثل التماثيل في معابد المسيحيين لا يفصح عن حالهم غير السكوت والخشوع .ثم نهضوا مستأذنين ، وقبلوا يد الجلالة مودعين كما قبلوها مسلمين . فنهضت على اثرهم فأشار جلالته تلطفاً ان اجلس .فعدت الى مكاني .ثم قال ،والا عتذار في صوته وكلامه ، صحيح فصحيح : ان حياتنا في هذه البلاد غير ما ألفت يا ايها العزيز ، وخشونة العيش عندنا لا يشفع بها غير الحب والغيرة ... فحاولت ان اباريه في هذا الميدان فذكرت التنازل الجميل في مجيئه من مكة ليقابلني . فأسكتني باشارة من يده ، وافحمني بل زادني خجلاً وعياً ، اذ قال : الا نقطع فرسخا لنلاقي من قطع البحار وتجشم الاخظار في زيارتنا .

من الضب الى الطب

التبادل بالمحامد والواجبات – الانكليز – دواء الغيظ – الناظر الجبان – الحشرات والدبابات – الضب – درس في علم الحيوان – اعقد من ذنب الضب – قنصل انكلترا – انتقام الملك – اضحوكته – افصح المحدثين والطف الجلساء – الغاز الديوان الهاشمي – التعقيد في السياسة – شخصية ساحرة – الباقي من قريش – بنو سعد – الطب – الكي – « وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد » – مجيء الطبيب من مكة – العلاج .

ان الملك حسيناً ليعتقد بمبدأ التبادل في المحامد والواجبات، ان كان في السياسة او في الاجتماع . وعنده من الدين على ذلك براهين لقد امرنا الله بالصوم والصلاة وتأدية الزكاة ،ووعدنا في مقابلة ذلك بالجنة. هذا هو التبادل بالمحامد والواجبات . وقد اخذ الانكليز منا عهداً بالقتال فاقمنا على العهد ، وقطعوا لنا عهداً بالاستقلال والوحدة العربية ، ولكنهم ويا للاسف نقضوا العهود .

عندما يذكر جلالته الانكليز يستحوذ عليه الحنق والغم فينادي احد نظاره ،الناظر الحضرمي ،ويكون قد دبر له حيلة للتسلية او مفزعة ينشرح لها صدره . والناظر الحضرمي ضعيف العصب ، سريع التأثر من غريب الحركات والاصوات ، شديد الخوف من الحشرات والزحافات وفي المبادهات . وبكلمة صريحة هو جبان – الجبان الاول في الديوان الهاشمي ،اما الثاني فهو الناظر الشاعر. اذ كل شاعر في رأي جلالته جبان .

اما الملك حسين فلا الاصوات ولا الخيالات ، ولا «بعبع»السياسات يحدث فيه ما يعد عيباً في الرجال. انه لشديد البأس ثابت الجنان. يوم ضرب الاتراك مكة والكعبة كانت تقع قنابلهم على قصره وهو فيه ثابت

لا يبالي . اما الاتراك فهم في نظره مثل الحشرات والزحافات التي يرثي لحالها ويستخدمها احياناً لترويع الناس . فقد علمت انه شغف بهـــا وبدرس اخلاقها وعاداتها . وقد يكون فيها فائدة خاصة لجلالته ، لانها بمساعدة الناظر الحضرمي تبدد الهموم الملكية ، وتذبح الغم الاكبر الذي يتولاه لمجرد ذكر الانكليز .

جاءني احد عبيده ذات ليلة يقول: سيدنا يبغيك. فأسرعت اليه فاذا بقنصل بريطانيا هناك . وبعد ان حدثنا ساعة عن الابل والاهوية في الحجاز ، وعن البدو وعاداتهم ، سألني قائلًا : اتعرف ايها العزيز الضب؟ فقلت : في الكتب فقط يا مولاي. فقال: سنريك الضب حتى اذا كتبت عنه تحسن الوصف. وضرب كفاً على كف فحضر عبد من العبيد ــ هات الضب .

نظرت الى القنصل وكان ينظر اليّ ، كأن قد خطر بباله ما خطر ببالي ، فتبادلنا ابتسامة فيها الدهش والاعجاب من هذه الجلسة الملكية التي صار فيها جلالته استاذاً في التاريخ الطبيعي والحيوان .

دخل العبد وبيده حيوان شبيه بالحرباء فأخذه الملك منه ووضعه على الديوان بينه وبيني .

ــ هذا يا حضرة الفاضل الضب ، وهذا ذنب الضب . قال ذلك وهو يربته بيده . « اعقد من ذنب الضب » ترى ان المثل صادق . وذنبه هو سيفه ودرعه .

قال القنصل : انه يشبه الحرباء واظنه هو بعينه . فترجمت كلامه لجلالة الملك فقال ، الحرباء غير الضب ، والفرق البيّن في الذنب .

ثم اومأ الى القنصل ان تقدم وافحصه فنهض ودنا من الضب ، فأخذ الملك بيده ووضعها على الذنب الشوكي وضغط عليها . فبدت في وجه القنصل علائم الالم فضحك جلالته ، واستأنف الحديث ــ هذا ضب صغير ياحضرة

القنصل ، وقد رأيت منه ما يزيد طوله عن الباع – كأنه ضب السياسة. والذنب كما ترى هو نصف جسمه ، اذا ضرب به ادمى ،فقد يقتل خصمه بضربتين. اقول: بضربتين. اماهذا الصغير فلا شرّ فيه يتقى ولا خير يرجى.

دخل اذ ذاك الحاجب ينبيء بقدوم الناظر الحضرمي.

فقال الملك : بلى بلى ، فيه خير (اي في الضب) وهو يواري الحيوان تحت جبته.

دخل صاحب الاقبال الناظر الحضرمي ،فأشار الملك الى مجلس قريب منه . وما كاد يتبوأه حتى مُدت اليه يد الجلالة،وصاحبها هادىء البال، وفيها الضب،وضعته في حرج الناظر المسكين. فصرخ وصاح صيحة طفل مرعوب،ووثب على الديوان وثبة جاب فيها الباب ، واصطدم بالحاجب هناك. فقهقه الملك وكاد يستلقي، وضحكنا كانا ضحك الصبيان ، وفينا الناظر الشاعر الذي كان جالساً متكتفاً على عادته، وقد كان يحاول اخفاء سروره في ابتسامة قيّدها التأدب. ولكن صيحة الحضرمي ووثبته فكتا منا القيود فتساوى في فترة بهجة الملك والشاعر والعبد المملوك. الا ان جلالته كان اول من ثاب الى الرزانة فخاطب الشاعر موبخاً : لا حق لك انت بالضحك . لا حق لك حتى تركب الطائرة او في الاقل الخيل. والناظر الشاعر يخاف ركوب الاثنين خوف زميله الحضرمي من الحية والضب.

عندما خرجنا من مجلس الملك تلك الليلة قال لي القنصل : هي الذ ساعة قضيتها مع جلالته وهو في غير موضوع السياسة افصح المحدثين والطف الجلساء . فظننت ذلك من مثله جوراً في الحكم . ولكني علمت بعدئذ ما يقاسيه الوكيل البريطاني في جده من فك الغاز الديوان الهاشمي وكشف الستار عن رموزه . وخبرت بنفسي اثناء اقامتي هناك ما لجلالته من القوة في التعقيد ، والبراعة في التورية والابهام . بل هو يطوف حول نقطة

سبع مرات كأنها الكعبة ولا يلمسها. فيدنو منها اطراراً في بعض الاحايين ثم يبعد عنها منقلباً مسرعاً ، وجليسه، وهو يعدو مبارياً ، وقد اعتراه من التطواف الدوار، يدق رأسه بالحائط او يصطدم بباب في هيكل الاسرار ، فيتلفت ليرى اين هو من صاحب الجلالة فيراه ، واأسفاه! بعيداً ويقف خجلاً مبهوتاً لا يدري ما يقول. والمصيبة في السكوت مثلها في النطق. فاذا قال : فهمت يا مولاي كان من المجاملين . واذا سكت ظُن سكوته استهجاناً . فيهز برأسه تخلصاً من الاثنين وينتظر الفرج من غوامض الحكمة ، في بوارق الختمة .

وطالما استمالتني اشارة مولاي اللطيفة فملت بعقولي الى السر في يديه وفي ناظريه ، وكنت كالمسحور في فيضٍ من المغناطيس يسيل من انامله ومن نظراته . وما السياسة ، وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحرٍ ينسيك شقشقات الناس وخزعبلات الامم .

اجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية ، والغوامض السياسية ، وقفات في حديثه تزري بالفصاحة والبيان ، واشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات تقيد منك العقل والجنان . يبسط يديه اشباعاً اذا احس من نفسه انه افحمك ، ويضمهما الى صدره تلطفاً اذا توقع منك جواباً . ويعالج عقاله او يحرك عمامته اذا رأى منك فتوراً او ادباراً . ويغير جلسته على الديوان اذا اوجس فيك الملل. فماذا تهمك معانيه ومقاصده وهو امامك السحر الحلال مجسداً !

كنت اغتنم الفرصة عندما يفك حبوته او يعقدها فاسأله سؤالاً لا علاقة له بالموضوع ملتمساً لفعلتي العذر في حب العلم وفي السياحة من اجله :

— نعم ايها العزيز الباقي من قريش قرب خمسة الاف وهم ثلاثة اقسام : قريش الاعاضيد ، وقريش الغميس ، وقريش الطائف . ولا يزال بينهم وبين

السلالة النبوية كثير من الحس والعطف ... اما بنو سعد ، وهم الذين ارضعوا النبي ، فديرتهم قرب الطائف ، وفيهم بيت يحسن اهله الجراحة ويتوارثونها بعضهم عن بعض ... هل تعلم يا حضرة النجيب ان الحمى تداوى بالكي ؟ بنو سعد الجراحون يداوونها بالكي .

وكشف جلالته عن نجاح طريقتهم في نفسه اذ انه مرض مرة بالحمى واكتوى فاراني اثر الكيين ، واحد في زنده الايمن والآخر في ساقه اليسرى .

— السر في مكان الكي . فهم يختارون اماكن في الجسم تتصل بالاعصاب التي تنتهي بمجموعها عند موضع المرض . لذلك لا يتركون الكي مفتوحاً ليخرج منه الصديد ، كما يفعل غيرهم ، بل يختمونه حالاً بشيء من الملح ، اقول : بشيء من الملح ، يذرونه عليه .

وكان قد انتبه جلالته لحركة في يدي تدل على الم ، فسألني عنها فأخبرته فقال : وقد يشفيك الله بواسطة طبيب من بني سعد . وبعد يوم وصل الطبيب من مكة . جاء بامر جلالته يداويني فسألني ثلاثة سؤالات فقط ، ولم يفحصني والحمد لله فحصاً طبياً ، ثم قال : لا ينفعك الكي . سخّن السمن وخذ الثوم دقه وامزجه فيـــه وادهن ثلاث مرات كل يوم ، وستشفى باذن الله تعالى وتذكرني بالخير . قال هذا وودع وانصرف .

وها اني اذكرك يا أخا العرب ، يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك ، يا خير من قابلته في حياتي من الاطباء . وسأذكر دائماً تلك البساطة فيك ، وذاك النور في ناظريك ، وتلك العظمة في صوتك ولهجتك وحركاتك . وسأذكر كذلك انك لم تصف لي ما هو اصل علاجاتك كلها كما يفعل الاخصائيون في البلدان المتمدنة . بل اشركت مع علاجك الله ، فكنت اكبر الحكماء واصدق الاطباء . سأذكرك دائماً يا راعي الاباعر ويا طبيب الملوك لاني كلما ذكرتك انسى آلامي ، وهذا لعمري خير علاج وانجع دواء .

الابداع في الاصلاح

طريقة عون الرفيق في الاصلاح وطريقة الملك حسين – الحجاج وبنو زمزم – المياه المقدسة المعدنية – الاوبئة – فني الماء في منى – للطاهر كل شيء طاهر – والحنفية لا تضر – القضاء على المكروب – المستشفى في مكة – تقرير مدير الصحة العام – الحجر الصحي في جزيرة ابي سعد – محجر الطور – محجر قمران – البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق – المعاهدة الانكليزية الحجازية – اسباب الصحة واسباب الاستيلاء – جوقة الموسيقى الملكية – طريقة الملك في اصلاحها – كتاب من جلالته .

ان لجلالة الحسين طريقة في الاصلاح تختلف مبدئياً عن طريقة عمه الشهير عون الرفيق الذي حمل مرة على الاولياء وشرع في تهديم قبورهم ومقاماتهم . اما جلالة الملك اذا حافظ على تقاليد فيها بقية ، او ليس فيها شيء من الخير ، يسعى هادئاً ويتخذ الطف الاساليب في اصلاحها او ابطالها .

من مظاهر الحج العجيبة مثلاً ان بعض الحجاج من الهند، لشدة ايمانهم وتفجر بركان اجتهادهم، كانوا يرمون بانفسهم في بئر زمزم تبركاً واستغفاراً ، واعتقاداً منهم انها اسرع واسلم طريق الى الجنة . فلم يقل الملك حسين ان هذا غلو في الدين ، ولكنه أمر بوضع شبك من الحديد على فم البئر فقطع بها الطريق القصيرة – المقرَّبة في لغة اهل اليمن – على المستشهدين . ولعله يقبل اقتراح احد رجاله المجنونين بالمشاريع الاقتصادية جنون اولئك الحجاج بالدين فيأذن بوضع مياه زمزم في القناني لتباع للحجيج – ماء مقدس ومعدني معاً ! انها لنعمة تشكر وتستثمر ، تُستثمر في سبيل الصحة العامة . وقد باشر جلالته بعض الامر المتعلق بها .

ليس من ينكر ان الامراض والاوبئة كانت ملازمة للحجيج في الماضي

ان كان في الاماكن المقدسة او في الطريق منها واليها . وقد ادرك الملك حسين ذلك واكتشف السبب . ان قني الماء في منى مكشوفة والحجاج وهم في بهجات الحج لا يهمهم المكروب، وهم يدوسونه بارجلهم، ويرجمونه بالاوساخ ثم يشربونه ويقضون عليه. للطاهر كل شيء طاهر. والملك حسين كذلك يقول هذا القول الا ان الحنفية لا تضر بالطهارة. وكل ما فيه راحة الحجاج وليس فيه ما يمس العقائد الدينية محلل. ومن ذا الذي ينكر في مكة او خارجها ان الشرب بواسطة الحنفية اسهل منه عباً او صباً .

عقد الملك النية على ان يحجب عن الحجاج وجه المياه، فأمر بان تغطى القني في منى ثم توضع القساطل والحنفيات ليشرب الحجاج منها. وهكذا قضى على المكروب او كاد . ثم أسس مستشفى في مكة[1] مجهزاً بالآلات والادوات الفنية ليتمم مساعيه الشريفة في استئصال الاوبئة ومكافحة الامراض . انه ليبغي سلامة الحجاج وصحة العرب قبل كل شيء .

وهناك في جزيرة ابي سعد في مياه جده محجر صحي يفتخر الملك به

(١) جاء في تقرير بعث به الي الدكتور محمد الحسيني نائب مدير الصحة العام في مكة : اخذنا في توسيع نطاق المستشفى فجعلنا فيه اربعة اقسام ذات شأن احتوت على مئة واربعين سريراً . قسم منها لتمريض الجنود وافراد الشرطة . وقسم لتمريض الاهالي . وقسم لتمريض النساء . وقسم لتمريض الاطفال . وقد اختص المستشفى الاهلي لتمريض الفقراء المحتاجين . اما عدد الذين حضروا الى المستشفى في خلال ثلاثة اشهر مضت فهو كما يلي :

٣٤٩٥	برسم المعاينة
٠٣٣٠	برسم المعالجة في المستشفى
٣٩١٧	تغيير القروح
٠٠٣٤	الوفيات
٠٠٢١	عمليات جراحية

ويلفت اليه نظر الانكليز قائلًا :

ــ وما الفائدة من محجر الطور ومحجر قمران وهذا محجرنا كامل الاجزاء ، نظيف الزوايا والارجـاء ، ولا يُظلم فيـه الحجـاج ولا يُغبنون ! هم ابناؤنا واخواننا ، ولا نظنكم تغارون على صحتهم وراحتهم اكثر منا .

قد رافقت جلالة الملك الى تلك الجزيرة وكان فيها يومئذ مئة ونيف من حجاج جاؤا ،تهافتوا على جلالته وحاقوا بها. فعفروا ــولا استعارة ــ امامها وجوههم ،وقبلوا اليد والجبة والركبة والرجل الملكية ،ثم التراب ، ثم بدأوا بالشكوى . وقد علمت ان الماء قليل . وان الخدامين ، وعلى رأسهم رجل تركي ، يتاجرون به ، وان الطعام رديء واثمانه غالية ، وان غرفة التطهير مقفلة لخلل في عدتها . اما البيوت التي يقيم فيهـا الحجاج ثلاثة ايام فهي نظيفة لانها خالية خاوية ، يلعب فيها الهواء على الدوام . وهذه لعمري فضيلة المحجر الصحي الحجازي الوحيدة .

انتهى الينا يوم كنت في جدة خبر البعثة الطبية لفحص المحاجر الصحية في الشرق ، وكانت يومئذ قد وصلت الى مصر . فاقترحت على جلالة الملك ان يدعوها لفحص المحجر في جزيرة ابي سعد لعله يدرك بعد ذلك بعص النقص فيه فقرأ في اقتراحي غير ما قصدت وأمر ناظر الخارجية ان يبعث حالاً بنبأ برقي الى المعتمد الهاشمي في القاهرة يأمره بان يدعو البعثة المذكورة لزيارة المحجر الصحي في جدة وفحص اسباب التطهير والصحة فيه . ولا اظن ان جلالته يعتقد بغير الشمس والهواء تطهيراً .

ــ تأمل يا حضرة النجيب طمع الناس . يأخذون من الحجاج في الطور راتب تطهير قلما يفيد ، ويأخذون راتباً في قمران ، ويبغون فوق ذلك مد ايديهم الى ابي سعد لتتم لهم السيادة على الحجاج ابنائنا واخواننا . وهذا

مستحيل ، اقول : مستحيل .

ان من بنود المعاهدة بينه وبين الانكليز ، تلك المعاهدة التي جاءه بها الكرنل لورنس وحداد باشا في شتاء سنة ١٩٢١ فرفضها ، ان يكون لبريطانيا الحق في تعيين اطباء بريطانيين في جزيرة ابي سعد . فأبى الملك حسين ، لظنه ان الانكليز في طلبهم هذا يبغون اكثر من معاش بعض اطبائهم واكثر من السيطرة على الحجاج . وقد لا يكون لهم في الامرين غرض يخشى . الا ان اساليبهم الحديثة لتدخلهم في شؤون البلاد وبسط سيادتهم عليها تشمل الاسباب الصحية ، وقد تنحصر احياناً بها .

والحق يقال ان محجر ابي سعد من الزيادات غير المفيدة بالنظر الى محجر الطور في شمال البحر الاحمر ومحجر قمران في الجنوب منه . فاذا أمر الملك باقفال ابي سعد يقفل باب الصحة الوهمي الذي يتذرع الانكليز به لتعزيز سياستهم في بلاده ويرجع الى الحقيقة العلمية البارزة في الطور وفي قمران فينتفع بها . وقد يتوصل الى اصلاح ابي سعد او بالحري ابطاله في المستقبل على طريقته المخصوصة في الاصلاح والعمران التي تقدم ذكرها .

والى القارىء مثال آخر منها : ان في مكة جوقة موسيقى ملكية امسى امرها من التقاليد الهاشمية المقدسة . وهي تضرب امام القصر ثلاث مرات كل يوم وتزعج جلالته كل يوم ضعفي الثلاث المرات ، بل تكاد تخرجه من ثوب الحكمة وثوبه . ولكنها التقاليد ينبغي احترامها على ضررها ، ثم مداواتها بالتي هي احسن . ومن تقاليد هذه الجوقة ان رجالها لا يُعزلون ولا يبدلون فيخدمون فيها مدة الحياة . وعندما يموت احد افرادها يعين الملك من يخلفه . وهاك طريقة صاحب الجلالة والحكمة في وضع حد لهذه النكبة واستئصالها .

مات منذ سنتين راعي (صاحب) الدف فلم يعين خلفاً له . ومات في السنة الماضية احد الزمارين فقال الملك،وما الضرر اذا نقصت زمراً؟ ثم مات راعي الطبل فكان سرور الملك عظيماً. وانه بعون الله وعزرائيل ليتخلص تدريجاً من الجوقة كلها .

اين المصلحون يجيئون مكة طالبين العلم والارشاد ؟ الا انهم اذا كانوا مثلي ومن ملتي فلا يتجاوزون في مسيرهم حدّاً [1] ولا اظنهم ينالون جزاء سعيهم اكثر مما نلت .

بعد ان اقام جلالته اسبوعين في جدة عاد الى مكة لاشغال هامة وظل معي من قبله وزيره الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب وحاشيته ، اي حاشية الشيخ فؤاد، المؤلفة من امرىء القيس والنابغة الذبياني والاخطل والمتنبي ، وكان الشيخ قسطنطين بني راعي الكاس والقرطاس فلا يدع فرصة تفوت او كلمة من الشعر تموت .

ومع ذلك غدوت كئيباً فكتبت الى جلالته كتاباً اشكو فيه ألم الفراق والالم الاخير الاشد من تقليد عقيم يضطره ان يحرمني زيارة ام القرى . فكتب اليّ يعتذر – وتوقيعه الملكي في رأس الكتاب – عذراً لطيفاً عذباً يصح فيه ما قيل في الشعر . كتب جلالته .

عزيزي المحترم

« بعد اهدائي حضرتك السلام وجزيل الاحترام. بانامل الشوق تلقيت رقيمك ، وبقدر ابتهاجي به وما احتوته مباحثه الكريمة ، كان خجلي من بقائكم في جده هذه المدة وتخلصكم

---

(١) في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي : حداء بالفتح ثم التشديد والف ممدودة وادٍ فيه حصن ونخل بين مكة وجدة يسمونه اليوم حدّا . قال ابو جندب الهذلي :

بغيتهم ما بين حداء والحشا واوردتهم ماء الاثيل فعاصما

جنى على نفسه حرمان لذاته واستفادته من فضائلك وكرائمك ، فان مهما جسمت ضرورة اسباب هـذا الحرمان لا اجده الا حجة علي . وعلى كل حال ففي كمالاتك ومداركها ما يغني عن كل بيان . وبها متسع محيط كل ما هو في معنى ذلك . وليس لي ما يهون تلك الرزية التي احكم بها على نفسي الا اعتقادي بان اسبابها ودواعيها هي مما تهتمّ لها فضائلكم . والله يحفظك ويمنّ عليّ بتلافي ما فات عزيزي . »

فهل في مروج الذهب ورياض الجنة الطف من هذا الكلام واعذب؟ عاد جلالته بعد اسبوع من مكة ليودعني ومعه الضب يواضيني به . وكفى بمجلسه رضوة وسلوانا .

تلميذ في البداوة والحكمة

ضيافة الملوك – الالقاب – الهدية – البدوي الجديد – تلميذ في البداوة – حقوق « الخوة » والحماية – الضيف السارح – الطنب السابح – رفيق الجنب – الاستنجاد – المحاكمة عند البدو – الجزامون – المخبرون – المساوون – الطب في جوار مكة – الاوهام – الناقة التي لا ترضع ولد غيرها – حيلة الاعرابي – عسل الحجاز ورمانه – شهادة الخديوي عباس وشهادة السلطان عبد الحميد – نادي الصلاة – غاياته الثلاث – اعضاؤه السبعة – جلال الدين الرومي – ناي يحن الى الغاب .

لا حاجة في الضيافة العادية الى صلة بين الضيف ورب البيت فانك تقبل ما يقدم لك او ترفضه ، وتطلب او تتمنى ما تشاء ، ولا رسول بينك وبين مضيفك غير رسول الادب والذوق . اما في الضيافة الملكية فالامر غير ذلك . والقاعدة الاولى فيها هي انه لا يجوز ان ترفض شيئاً يهدى اليك او ينعم به عليك .

وملوك العرب ، على ما يظن فيهم من البداوة والخشونة ، هم مثل سائر الملوك في انهم لا يبادهون الضيف فيرتبك. لذلك هم يعينون ، فوق من ينتدبون لخدمته ، رجلاً يقيم معه فيكون له رفيقاً وسميراً، ويكون بينهم وبينه رسولاً يحقق البغيات وينبه الى ما فيه تدارك المزعجات .

كان صديقي قسطنطين يني هذا الرفيق السمير الرسول ، فجاء في اليوم الثالث بعد وصولي يحدثني بالالقاب ، فذكرته بايام الفريكة والعزلة في الوادي ، ثم قلت : ومن يقيم في اميركا عشرين سنة مثلي لا يغير رأيه في الموضوع . وقد اخبرني بما كان من امر صديقي سركيس قبلي ، فقلت : وعسى ان لا اضطر مثله ان ارفض شرفاً

هاشمياً . ان امري في يدك يا قسطنطين . تدارك النعمة قبل حلولهـا . فقال : والهدايا ؟ فقلت : اقبل كل ما يجيئني منها .

وجاء في اليوم التالي عبد من عبيـد جلالة الملك يحمل اليّ كسوة عربية وخنجراً مكياً ، وقطعة مزركشة بالذهب من ستار الكعبة . لله در قسطنطين ، الرسول الامين ، القائل لجلالته : هذا الريحاني ناسك تليق به الآثار المقدسة ولا تليق به الالقاب . وفي الحقيقة ان قطعة من ستار الكعبة هي علق من الاعلاق لا يحوزها غير المقربين .

لبست القميص البدوية ذات الاردان ، ثم العباءة ، ثم عقال الذهب ، وتمنطقت بالخنجر[1] ورحت تواً اشكر صاحب الجلالة . فلما رآني في هذه الصوره بسط ذراعيه هاتفاً: يا حبيبي يا عيني ! وضمني الى صدره وقبلني . فأحسست من شدة التأثر بشيء غشي عيني ، فبادرت الى مكان المنديل من ثوبي الجديد ، فما وجدت حتى الجيب فيه ، فمسحت الدمع بردني ، فضحك جلالته وقال : حقاً انك بدوي الآن .

وجلسنا نتحدث في السياسة . ثم جاء قنصل فرنسا وبعض التجار مسلّمين فانتقل جلالته الى البدو ـ اكراماً لهذا البدوي الجديد التلميذ في البداوة ـ وحدثنا في حقوق الحماية والخوة .

ـ ثلاثة لهم حقوق الخوة والحماية: الضيف السارح[2] والطنب السابح[3] ورفيق الجنب[4] واذا دخل الضيف السارح بلداً او «ديرة» يضيفه اول

(١) يدعى الخنجر في الحجاز قدمية ، والقاف تلفظ جيماً ـ جدمية ـ لانه يحمل من قدام ويدعى في اليمن جنبية لانه يحمل على الجنب .

(٢) من كان في سفر .

(٣) من دخل الديرة مستنجداً . ويراد بالطنب بيت الشعر ، وهو من باب تسمية الشيء بجزء منه . ويراد بالبيت صاحبه وان كان سابحاً سائحاً لا بيت له ولا مقر .

(٤) اي رفيق السفر .

بيت يمر به . له الحق الاول في الضيافة . اقول الحق الاول . فاذا تجاوزه السارح الى جاره يعدها اهانة فيطالب الجار به – مرّ الغريب بيتنا قبل ان يمر ببيتكم . واذا كان لا يطالب بهذا الحق ينظر اليه بعين الاحتقار . .

ومن اضاف سارحاً ايها العزيز، عليه ان يحميه مدة اثنتي عشرة ساعة بعد ان يرتحل . والاستنجاد ، نعم له حدود . يرفع العرب الاستنجاد الى خمسة اجداد فقط وما وراء ذلك فلا حق فيه لمستنجد . ولا فرق بين العرب والاشراف من هذا القبيل الا في القصاص . حياة الشريف اذا قُتل عمداً بحياتين .

وللبدو طرائق في المحاكمة وتقاليد يحترمها حتى اليوم ملوك العرب كلهم . فلا يضطرونهم في كل احوالهم الى الخضوع للاحكام الشرعية . ومن تقاليد البدو مثلاً ان على كل اعرابي ان يحكم في خصومة اذا رفعت اليه . اما اذا كانت الخصومة بين قبيلتين فتسمع غالباً في ديوان الملك الخاص .

حدثنا جلالته في طريقة المرافعة قال : ينتخب كل فريق اثني عشر رجلاً لاثبات دعواه ، فينتخب المدعي رجاله من قبيلة خصمه والعكس بالعكس . ويكون من الاثني عشر رجلاً اربعة هم الجزّامون ، واربعة هم المساوون . ويحلفون كلهم اليمين المعظمة قبل ان يشهدوا . يقول الجزّام : القضية كذا وكذا . ويقول المخبر : سمعت بما يختص بها كذا وكذا . ويقول المساوي : اذا كان كذلك فينبغي ان يكون كذا وكذا .

اي ان الجزّام يبسط الدعوى والمخبر يشهد والمساوي يحكم فيها . وانك لترى في هذه الطريقة البدوية شيئاً من احكام الامم المتمدنة بل فيها ما هو اقرب للحق واضمن للعدل ، لان كلاً من المدعي والمدعى عليه ينتخب رجاله ، اي وكلاءه وشهوده وقضاته ، من قبيلة خصمه . وما اشبه المساوين عند البدو بالمحلفين عند الاوروبيين .

قلت ذلك لجلالته فقال : الله سبحانه وتعالى لم يخص الاوروبيين بكل

فضيلة. عندنا نحن العرب بعض الفضائل . وانت ايها العزيز النجيب اعلم بذلك. ليس كل ما يجيء من اوروبا خالياً من الغش او من الشوه والشين. قد يجهل الاوروبيون اشياء نعلمها ونعلّم بها. خذ الطب مثلاً. قد شاهدت ايها العزيز اعظم الاطباء فلم يشفوك من آلامك العصبية وعسى ان يشفيك الله بواسطة طبيبنا فتقول لهم اذ ذاك: جاءني الشفاء من جوار مكة من الله.

ثم قال: وقد يكون في ما تشكو منه بعض الوهم ايها العزيز اقول: بعض الوهم ، والوهم يسطو على الناس كما يسطو على الحيوان . اذكر لك مثلاً في الابل . من النوق، لمزاج فيهن او لعلة عصبية ، من لا يرضعن ولدانهن فيحمل العرب الولد الذي لا ترضعه امه الى ناقة اخرى، وهذه لا ترضعه لانه ليس بولدها . فيحتال الاعرابي على الناقة، ويسلط عليها الوهم. اقول: يسلط عليها الوهم. وكيف ذلك؟ انه يضع في حيائها خرقة مطوية او شيئاً آخر يسمونه الدُرْجة ثم يشد على عينيها عصابة وعلى انفها اخرى ويترك الناقة كذلك اياماً، فيأخذها غم كغم المخاض. ثم يحل الرباط عنها ويخرج الدُرْجة ويلطخ بها ولد غيرها فتظن انه ولدها فترضعه .

وكان ينتقل جلالته من موضوع الى آخر وفي كل منها المستغرب من اللذة والبسط المفيد من الحكم والامثال . وهي ببـــلاد وشعب يعرفهما كما يعرف الكتاب الكريم .

ــ ما حرمنا الله كل فضيلة ايها النجيب ولا حرمنا كل ثمرة من خيراته. قد انزلناك بواد غير ذي زرع. هذا صحيح. ولكن الحجاز، على فقره، يفاخر سائر الاقطار العربية بشيئين ، بعسله ورمانه. عندما جاء الخديوي عباس حاجاً أكل من عسلنا وكان يقول بعد الشهادتين: واشهد ان لا عسل في العالم مثل عسل الحجاز . اما الرمان، وهو يجيء من وادي ليّه قرب الطائف، فيصير كبيراً كالحبحب (البطيخ) وهو كبير الحبة خال من البذر.

اكبر والذ ما في الدنيا . ارسلنا مرة صندوقاً منه الى السلطان عبد الحميد فقال : هذا أجمل رمان جاء من اجمل بقعة في ارض الله، وهو يليق بالهدية. كذلك ينادي بائع الرمان : من وادي ليّه ، للهدية. نعم ايها العزيز في عسلنا ورماننا برهان ان الله سبحانه وتعالى لا ينسانا نحن العرب، عرب الحجاز.

وكيف ينساهم وفي جدة مظهر من مظاهر الورع والتقوى ما شاهدت مثله في مكان آخر . هو نادٍ قليل الاعضاء ولكنهم كلهم حكماء ، صغير الحلقة ولكنها حلقة نور صفي ليس فيه خيط واحد من الظلام. هو ناد فريد في بابه لا رئيس له ولا بيت ولا قانون ، يجتمع اعضاؤه كل يوم عند الغروب على كثيب رمل قرب البحر خارج البلد، فيصلون المغرب اولاً، ثم يبادرون الى اكرة من حديد فيتمرنون ويتبارون في رميها، ثم يجلسون في حلقة على الرمل ويتحدثون في الادب والشعر والتاريخ .

انه يدعى نادي الصلاة، ولكنه في غاياته الثلاث اي رياضة الجسم ، ورياضة العقل، بعد الرياضة الروحية، قد جمع بين اطراف الحكمة كلها. لا اظن ان في العالم شرقاً وغرباً نادياً آخر مثله، ولا اظن ان فريقا من الناس غير اعضائه ، غربيين كانوا او شرقيين ، توصلوا قولاً وفعلاً الى غايات الحياة القصوى ، اي المحافظة بواسطة الرياضة على سلامة الروح ، وسلامة العقل ، وسلامة الجسد معا .

وما اجملها ساعة نذكر الله فيها، ثم نذكر نعماءه في الاجساد فنسعى دائما في حفظها صحيحة سليمة ، ونذكر نعماءه في العقول فلا نهملها في الرياضة والتمرين لتساوي الجسد والروح صحة ونشاطا .

ان نادي الصلاة في جدة هو مقاصد الحياة كلها . ويصح ان ندعوه نادي الحكمة العملية المثلثة الزوايا ، فان الحكمة كل الحكمة في المساواة والتوازن بين الروح والعقل والجسد .

اما اعضاء النادي فهم كما قلت من صفوة الناس ، كلهم اتقياء عقلاء حكماء وقد شرفوني يوم كنت هناك بان ادخلوني في الحلقة المباركة على نقص وخلل في مثلثة الزوايا عندي . فقد غلبني شيخهم الاكبر في رمي الاكرة ، وغلبني شيخهم الاصغر في المساجلات الادبية والشعرية . اما في الصلاة فكنت اشاركهم ، دون ان اقف في الصف وراء الامام .

ومن هو الشيخ الاكبر الذي يرمي الاكرة كالشاب ومن هو الاصغر؟ اما اذا ادخلت القارىء الى النادي الفريد في قصده ومقره فينبغي لي ان اتمم العمل فاعرّفه الى الاعضاء وعددهم هو العدد السري القدسي سبعة فقط .

هذا الحاج زينل علي رضا شيخهم الاكبر يحترمه التجار في الحجاز وفي بمباي ويعرفه ويحبه كل الاولاد في جده. ذلك لانه في عيد الفطر يخصهم بقسم مما كسب في الاتجار. فيجلس في ايوان داره والى جنبه اكياس من النقود الفضية ، ريالات وروبيات ، فيوزعها على الفقراء وخصوصا على الاولاد . يمرون امامه صفوفا في ذلك اليوم وكثيراً ما يمر الولد الواحد ثلاث مرات فيأخذ قسمته ثلاثة اضعاف ، والحاج زينل عالم بذلك ضاحك محبور .

وهذا اخوه الحاج عبدالله محافظ جده وهو حكيم الحلقة الاكبر وصاحب الفكرة في حفظ التوازن بين العقل والروح والجسد ، وان عدل الحاج عبدالله في الحكم ليجاري البر والحكمة في اعماله الخيرية واهمها المدرسة العمومية التي انشئت في جدة .

وهذا الشيخ محمد نصيف اديب جدة الاكبر وامير الكتب فيها . فان عنده مكتبة حافلة بالقديم والحديث من التآليف . لا يقتنيها للعرض فقط بل لينتفع وينفع بها . يجيء الادباء الى دار الشيخ محمد كأنها دار الكتب العمومية ، فيعيرهم ما يشاؤون منها ويشتري ما يعرضون من مخطوط او مطبوع . وهو دائرة معارف ناطقة يجيب على السؤالات التي توجه اليه ويهدي الى

مصادر الثقة في العلوم الادبية والتاريخية والفقهية .

وهذا الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية واخوه عبد القادر ، وهما من العرب الذين لا يفادون بنعيم الدنيا في سبيل النعيم السرمدي المنتظر ، بل يشركون بين الاثنين ، او بالحري يجعلون الواحد مقدمة للآخر . فيلبسون الدمقس والاستبرق ويتطيّبون بعد الاكل وقبل النوم ولا يستكثرون الخمسة الجنيهات يدفعونها ثمن زجاجة واحدة من الروائح الطيبة ، ولا الخمس الصلوات يصلونها كل يوم .

وهذا الشيخ محمد الطويل ، اصغر الاعضاء قداً ، وآنقهم كساء ، وألطفهم مبسماً ، وأقدرهم في عد الاموال وتصريفها . اجل ان الشيخ الطويل هو المصرف الهاشمي ، هو خزينة الملك حسين ، هو ناظر الجمارك في القطر الحجازي . وعليه دفع الكبيرة والصغيرة ، فاذا شاء جلالة الملك ان ينعم احداً بمئة روبية يحيله على الطويل ، واذا شاء شراء باخرة او سرب من الطائرات فالدفع على الطويل .

ولا اظن ان اخصائياً اوروبياً يفوق الشيخ محمد في علمي الادارة والاقتصاد . ولا يفوقه يقيناً في النزاهة والاخلاص .

وهذا الملا حسين الشيرازي العالم باسرار الميكانيكيات والتصوف ، يصلح القناديل وآلات الخياطة ويروي من اشعار مولانا جلال الدين رومي باللغة الفارسية ، فيشدو ولا شدو البلابل ، فيجاوبه الحاج زينل بتلك اللغة الفخمة الشريفة ، ثم يترجم لي بعربية افخم واشرف .

قال مولانا جلال الدين : اني عود قُطع من الشجرة وصُنع منه الناي فهو في صوته يحن دائماً الى الغاب .

واني وان كنت ضيفاً سارحاً احس باني عود قطع من تلك الشجرة المباركة شجرة نادي الصلاة في جدة ، وصنع ناياً صغيراً . والناي يحن دائماً الى الغاب

قرون السياسة

الضدان والقبلتان – البعثة الفنية ونتيجة اعمالها – النقابة الوطنية – شروط الامتياز الذي طلبه النعماني – مدرسة الزراعة – المدرسة الحربية – الضغط على تجار جدة – قصة الاسطول الانكليزي والاسطول الهاشمي – تعليم اولاد العرب خارج الحجاز – «سيدنا لا يأذن به» – الموسيقي وشرب الخمر – الطيارات والدبابات – نادي الكأس – مفزعة الحجازيين – شيخ الاسلام وبابا رومة – البدو جهل مسلح – «الهاشميات» لا تصلح شيئاً – ذوو حسن – بدو الرويس – اللبقوم – جاه سيدنا – شيخ حزين – «اتبع من تختارون» – التساهل في المؤثرات – فيصل ضمناً وصراحة – وزيد وعبدالله – «ان ابناءنا اعداؤنا»

في كل كبير تجتمع الاضداد ولكل كبير من العرب اليوم قبلتان، قبلة الدين وقبلة الدنيا، فيولي وجهه الاولى مرة او خمس مرات كل يوم، ثم يتطلع الى المغرب بقية يومه. ياقبلتي ساعة نلبس، وساعة نأكل، وساعة نركب السيارة. ولكن القبلة الجديدة كثيرة الاسباب، كثيرة النفقات. فينبغي لنا اذن ان نستعين عليها بالمعاهدات الدولية، والقروض المالية، واما بالبعثات الفنية والامتيازات. وقد جرب جلالة الملك حسين الطريقتين ولا يزال يتردد بين معاهدة تقيد وامتياز وطني قد لا يفيد.

في سنة ١٩١٩ بعث صديقي قسطنطين يني الى سوريا ليبحث له عن اخصائيين مهندسين واطباء. فعاد قسطنطين الى جدة ومعه بعثة كاملة من الفنيين، ابناء العرب النجباء، المخلصين للقضية العربية، والمخلصين كذلك للذهب الوهاج، كما اتضح بعدئذ. جاءوا مع القسطنطين راغبين مستبشرين. فاقاموا في الحجاز سنة ينقبون ويبحثون، ويقيّلون، ولكن

اعمالهم لم تسفر عن شيء مفيد . ولا يعلم جلالته اليوم اكثر مما كان يعلمه قبل قدومهم . نعم ، ان في جوار الوجه نفطاً ينبع على الشاطىء من البحر ، وفي جبال الحجاز نحاساً وطلقاً وحديداً ، وفي مكان حول مكة معدناً من الالماس ، وليس في البلاد العربية شركة مالية فنيـة تستثمر هذه المعادن ، فتخلص جلالته من ظل مخالب الشركات الاجنبية .

اما شركة النعماني ، وفيها لا شك مال وعلم اجنبيان ، فلم تحز الحظوة لدى جلالة الملك . وقد يكون رفض الامتياز الذي طلبته منه ، على شروطه الحسنة الممتازة [١] لاسباب سياسية تتعلق بالمعاهدة الانكليزية الحجازية التي لا تزال قيد المفاوضات . وقد يكون «لشركة المشاريـع العامة» [٢] في جدة كلمة نافذة لدى جلالته في تفضيل هذا الامتياز فيما بعد على سواه .

قلت ان اعمال البعثة الفنية لم تسفر عن شيء مفيد . وما الفائدة من مدرسة زراعية بمكة وليس في الحجاز ارض توجب الاهتمام بعلم الزراعة . وقد انزلناك بواد غير ذي زرع .

---

(١) من شروط هذا الامتياز الذي يشمل من اجل البحث والتنقيب اراضي الحجاز كلها ، ان صاحبه يدفع للحكومة الحجازية اربعين في المئة من صافي ارباح عملية الاستثمار وتحتفظ الحكومة بحق الافضلية في شراء خمسة وعشرين بالمئة من البترول المستخرج باسعار تبنى على اساس سوق لندن بعد حسم مصاريف النقل الى حدود اوروبا .

وتتكفل الشركة بانشاء خط حديدي بين جدة ومكة وخط ثان بين ينبع والعلا لحساب الحكومة . وتسلم هذين الخطين الى الحكومة الهاشمية بكل لوازمها فيصيران ملكاً للحكومة . وتستوفي الشركة قيمة ما تصرف على انشاء الخطين مع الفائدة القانونية من واردات الاربعين بالمئة العائدة الى الحكومة .

(٢) هي شركة وطنية ترمي الى تحسين اقتصاديات البلاد من كل الوجوه المشروعة ويدخل في برنامجها الذي اجازته الحكومة الهاشمية ان لها حق النظر في الامتيازات فتستشيرها الحكومة قبل ان تعطي امتيازاً لاحدى الشركات .

اما المدرسة الحربية فلا بأس بها لو كان البدو يقبلون عليها. ومعلوم ان اكثر اهل الحجاز من البدو، وانهم لا يحتاجون الى من يعلمهم القتال وحمل البنادق، وقد يستنكرون ذلك. اما اذا كان لا بد من جيش منظم فالحكومة تضطر على ما نظن ان تدفع للبدو، بدل ان يدفعوا لها، راتب التعليم وليس لجلالة الملك من الموارد الآن ما يساعد على القيام بنفقات هذه المدرسة، التي يرجو منها اعادة الجيش الهاشمي المنظم الى مكانته وقوته قبل وقعة تربه[1] وما وقعة تربه غير نكبة نكب الحجاز بها ولا يزال متأثراً منها.

فلا عجب اذا كان سيد البلاد يرهق اهله ليعيد اليهم، بوساطة الجيش النظامي، عزاً قضى « الاخوان » عليه. ولا غرو انه يخص التجار بما يستوجبه تسليح البدو. فاذا أبوا يستشيط غيظاً ويسترسل الى نزعة فيه تركية اكتسابية. قيل لي انه في ساعات الغضب مخيف هائل وانه اذا استدعى احداً منهم الى مكة، بريئاً كان او مذنباً، يكتب الرجل وصيته قبل ان يخرج من بيته.

رسا الاسطول الانكليزي ذات يوم في مياه جدة وكان حديث الناس، فقال احد الظرفاء بل البسطاء ان الاسطول الهاشمي اكبر واعظم منه. ولو لم يكن كذلك لما جاء الاسطول الانكليزي مسلماً موالياً فوصلت الكلمة الى جلالة الملك، فطُلب الرجل الى مكة، وانزل السجن عند وصوله اليها، وظل فيه اربعة اشهر دون ان يعرف ذنبه، ودون محاكمة، ثم جيء به الى حضرة صاحب الجلالة المنقذ الاكبر، فقرصت اليد الملكية اذن ذاك المسكين واسمعه اللسان الملكي من الحكمة ما يعينه في المستقبل على حسن الكلام في الحكومة الهاشمية او في اسطولها.

---

(١) جرت وقعة تربة في البلدة التي تدعى بهذا الاسم وذلك في ربيع ١٩١٩ بين عرب نجد « الاخوان » وجيش الامير عبدالله المنظم الذي كان محاصراً المدينة ولم ينجُ منها غير الامير وبضعة من رجاله. راجع تاريخ نجد وملحقاته، المؤلف نفسه

حدّثتُ احد وجهاء جدة في ولد له ذكي ورغبت اليه ان يرسله — لا الى اوروبا — بل الى مصر او الى سوريا ليتلقى العلوم فيها . فقال : وهذه رغبتي ولكن سيدنا لا يأذن بذلك . وقد تأكدت ان في جدة غيره من الناس الذين يرغبون بتعليم اولادهم خارج الحجاز — في القاهرة او في بيروت — ولكن سيدنا لا يأذن به .

الا هو الشرع ، لنعد الى الكتاب والسنة . وان كل ما يخالف ذلك في حياة المسلم ، قولاً او عملاً ، وكل ما فيه شيء يطلق في المسلم حرية قد تخرجه عن المشروع والمنقول ، بل كل ما فيه جرثومة علم قد تكون نتيجتها ، ولو بعد جيلين ، حيوان كفر كبير ، فهو من الويلات التي يحاربها المتشرع الحكيم والحاكم البعيد النظر . اجل ، انه يحاربها قبل ان تظهر الى عالم الوجود .

وجلالة الملك حسين من ملوك العرب الذين يهمهم فوق كل شيء سعادة المسلمين الدائمة السرمدية . وهذه السعادة التي ذكرها النبي ووصفها الله في كتابه وصفاً جميلاً لا تقوم بالموسيقى ، والرقص وشرب الخمر ، وكسب المال ، او بالتعلم في المدارس الاجنبية .

واذا ما تساهل جلالته في امور لا تمس « السعادة السرمدية » بضرر ، كالطائرات مثلاً او الدبابات ، التي يعدها للزحف على « الاخوان » او كآلة لتصفية الماء ، الذي جعله الله في ارضه المقدسة مالحاً ، او كمعمل لصنع الثلج ، فهو لا يتساهل قطعاً في ما يبلبل الاذهان ، ويفسد الاخلاق ، ويخرج العرب ولو قيد فتر عن دين هو كنزهم الثمين في الدنيا وفي الآخرة .

— لا يلزمنا نحن العرب من العلم ، يا ايها النجيب ، غير ما يوافق حالنا وبلادنا ، ويمكننا ضمن حدود الدين ، اقول : ضمن حدود الدين ،

من الانتفاع بالكمالات .

ان في جدة افاضل من التجار والعلماء ساحوا في العالمين، عالم المادة وعالم الفكر، وخبروا الزمان، ولم يفقدوا كنز الايمان . وهم يرون في التعلم ، حتى في مدارس الاجانب، غير ما يراه صاحب الجلالة ولكنهم ....

اذا قلت المحال رفعت صوتي وان قلت اليقين أطلت همسي

وفي جدة اناس فيهم ما في غيرهم من اصناف الناس من النزوع الى الكيف، فيطربون لصوت العود، ويبتهجون بتلك التي تشعشع في الكأس ويحسنون لعب ال « بوكر » ولكنهم، اذا جاء المعلم، يتأدبون واذا غاب يلعبون . يكفي ان اقول ان في جدة غير نادي الصلاة . فيها نادي الكأس ايضاً ، ولكن اعضاءه الذين لا يتجاوزون العدد المقدس لا يجتمعون الا مثل الفوضويين سراً . حدثني احدهم وكان الاحرى به ان يستعمل ضمير المتكلم بدل الغائب ، قال :

– عجيب يا استاذ امر الناس في هذا البلد . ولا تستغرب قولي ان الخوف يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر . فتراهم عندما يشرف البلد كأنهم في مأتم ، وعندمـــا يعود الى مكة يعيدون . فيخرجون من الصناديق ، الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل ، مسترسلاً في التهليل . هذا الشيخ قاسم يشهد على ما اقول :

فقال الشيخ قاسم، وهو البارع الحاذق في افانين الحديث، فيغير الموضوع دون ان ينتقل منه او ان يسيء: عندما كنت في الاستانة كنت اقول لزميلي سليمان البستاني :لا يُصلِح هذا الكون الا بامرين ، ان اصير انا بابا رومه ، وتصير انت شيخ الاسلام .

فقال الضابط : لا يصلحه الا السيف .

فأجابه الشاعر : قد كان السيف بيدكم وما اصلحتموه .

فقال التاجر : مصيبتنا البدو . البدو مشكل لا يحله الا الله .

فأجابه الحكيم : جهل مسلح يزيله علم مسلح .

ــ احسنت احسنت . وهذه المدرسة الحربية الهاشمية قد اسست لهذه الغاية

ــ اقول لك بحرية ان « الهاشميات » كلها لا تصلح شيئاً . يظل ذوو حسن[1] الى آخر الدهر لصوصاً عصاة ، وبدو الرويس[2] لا يتغيرون ولا يصلحون . والبقوم[3] يتذبذبون وينافقون ولا يذعنون الا للقوة وانتم ــ صلّ على النبي .

بينا نحن في هذا الحديث جاء الامير زيد ينبئني بان جلالة الوالد قادم لزيارتي . فارفضت الجلسة وبعد دقائق دخل عبد يقول : سيدنا . فخففنا الى استقباله ووقفنا في الباب ننتظره حتى نزع نعلاً من رجله يلبسه فوق حذائه ودخل فجلس في كرسي الى جنب الديوان الذي خصني به . ثم جاء الخادم بالقهوة وجاء عبد جلالته بالفنجان الملكي الخاص الذي يحمله في بيت من حرير مزركش باللؤلؤ الثمين .

وكان للكآبة يومئذ خيال على جبينه العالي ، بل ظلٌ في وجهه الصافي الاديم . وكان الحديث في السياسة ، وفي النهضة ، وفي مؤتمر فرساي ، وفي الانكليز ، وفي فيصل .

---

(١) هم اشراف ذوي حسن يقيمون بين الليث وجده يقطعون الطريق براً وبحراً فيسلبون وينهبون ولا تستطيع الحكومة الهاشمية تأديبهم .

(٢) بدو الرويس . مثل ذوي حسن الاشراف ، ولكنهم يمارسون مهنتهم في الشمال بين ينبع وجدة .

(٣) البقوم عشيرة تسكن تربة والخرمة وفيها من الاشراف الذين « دينوا » اي اعتنقوا المذهب الوهابي . فالملك حسين يدعي رعايتهم لانهم من بني لؤي ، اشراف الحجاز ، والسلطان عبد العزيز آل سعود يدعي ذلك لانهم وهابيون . وقد فصل السيف ، سيف نجد ، بينهما في وقعة تربة .

– لا تظنني اشكو يا ايها العزيز النجيب اقول ، اننا ثابتون في خدمة البلاد مهما تشعبت المشاكل وتعددت الصعوبات . ولا نبغي غير عز العرب . والسوريون من صميم العرب . فاذا صعدنا في الكمالات ، وبعدنا عن مفاسد المفسدين ، ودسائس النفعيين ، ولا استثني اقرب الناس اليّ – اقول : اقرب الناس اليّ يخونون او يخطئون – فالحجاز يتبع سوريا وانا يا حضرة الفاضل اتبع من تختارون للخدمة وللزعامة . اقول : اتبع من تختارون ... وكان الكاتب الاول في الديوان الهاشمي الشيخ احمد السقاف وهو كاتب سر جلالته يحمل حقيبة فأمر بفتحها ففتحها وقدمها للملك فاخرج منها اوراقاً رسمية اطلعني عليها .

– ما جئتك شاكياً ياايها النجيب العزيز ، ولكنها العهود ، وحقوق الاب على بنيه .. ان احقر البدو لا يخون عهداً يعاهد به . ولو اتبعوا نصيحتي ، لو امتثلوا لامري ، لما كان ذاك التساهل والتذبذب في المؤتمرات . فتحوا للفرنسيس باب سوريا ، وكادت سياستهم تقضي على القضية العربية .

قد علمت بعدئذ من شرح المتن لجلالته ، ان الضمير في « اتبعوا » « وامتثلوا » « وفتحوا » هو عائد الى من كان يمثله في الشام وفي فرساي وعلى رأسهم الامير فيصل وعلمت كذلك ان جلالة الملك حسيناً كان يرغب بالقدوم الى سوريا ، وبان يمثل العرب في مؤتمر السلم الاول . اذن هو ناقم على فيصل . وقد قيل لي انه يوم عاد الامير آخر مرة من اوروبا الى الحجاز لم ينزل جلالة الوالد ليلاقيه في جدة كما كان يفعل سابقا .

انها لمن المحزنات . اما الحقيقة في القضية ، الحقيقة كلها : فهي مقسمة لا تجتمع لواحد من آل هذا البيت الشريف . فلو مثل الملك حسين العرب في باريس ولندن ايام المؤتمرات لكن الامر ولا ريب اثبت في يديه ، ولكانت النتيجة احسن للعرب . ولكن وجود الملك حسين في الشام ، في

سوريا ، يضيع ما قد يكون كسبه في مفاوضة الاحلاف بباريس ذلك لان السوريين كانوا اميل الى فيصل منهم الى والده لعلمهم انه عصري ، رحب الصدر ، دمث الاخلاق .

فالصلابة التي تفيد في لندن وباريس لاتفيد في الشام . ومهما قيل في الملك حسين ، ومهما تعددت مناقبه الشريفة ، فهو في صفته الدينية لا يُعزّز زعيماً كان او مليكاً ، في بلاد تعددت اديانها ، واشتدت من جراء ذلك النعرات والنكبات .

ولكننا اذا ما نظرنا الى القضية من وجهة الملك الابوية نرى ، في حقوق تقضي عليها الحوادث ويمحو اثرها الزمان ، مأساة بشرية في قلبها شيخ جليل نبيل . وهو مع ذلك ثابت في عزمه ، وفي ديوانه ، وفي جريدته . يهز على اعدائه السيف واليراع ، ولا يهمه من الملك ماضاع ، وما لا يعطى منه ولا يباع فهو ، ما دامت له قوة ، يطالب به على الدوام ، ولا يرضى بغير « ملك العرب » لقباً وان كانت سيادته لا تتجاوز الطائف شرقاً والقنفذة جنوباً ، رضي امراء العرب ام لم يرضوا .

ملك مغبون ، وشيخ في بيته محزون ، لا يشكو الزمان ، ولكن في قلبه من الزمان جمرة حامية . ولا يلوم العربان ، وفي صدره من العربان دمّلة دامية . ولا يندم على ماتقدم في سبيل النهضة من المساعي والذنوب . فهو النهضة اولاً وآخراً ، وهو لايزال باذن الله قوياً عصياً ، مهما كان من امر « فيصلنا » و « زيدنا » وعزيزنا في شرق الاردن . قد قال بلزاك « ان ابناءنا اعداؤنا » . وما اصدقها كلمة ولا سيما على الاسر الشريفة المالكة .

بين الاستانة ومكة

اكبر ملوك العرب واضعفهم – ملك الحجاز وملك العرب – فضله الاكبر الثورة على الترك – نشر الدعوة في اوروبا – سيرة الملك حسين – اقامته في الاستانة – رجوعه الى مكة – عون الرفيق – قبر امنا حوا – في ظل الشريف عون – الرجوع الى الاستانة – عضو في مجلس شورى الدولة – امير مكة – الحال في الحجاز مدة امارته – اعلان الثورة – منشور الاستقلال – سورة البقرة – العرب غير المسلمين – الدين في النهضة – الاصلاح التركي – انتصار التترك – عبد الحميد الصغير – مكة وفروق – السن والبسفور

ان الملك حسين اذن لاكبر ملوك العرب سناً ، واظهرهم جلالاً ، وارفعهم من الوجهة الدينيــة مقاماً ، واغمضهم في السياسة مسلكاً ، واضعفهم اليوم سلطة ، واشدهم كرباً وغماً . هو ملك الحجاز في المعاهدات الدولية ، وملك العرب في الجريدة الرسمية ، والمنقذ الاكبر في عين اولئك الذين لا يعرفون من البلاد العربية غير الحجاز . وليس من ينكر انه كان منقذاً في برهــة من الزمن لا اظن التاريخ يعيدها ، او الاقدار تسمح بتمديد اسبابها ، فتمكن الملك حسين من تحقيق امـال المتهوسين وآماله الوطنية ، بل احلامه الهاشمية .

ان فضله الاكبر لفي ثورتـــه على الاتراك ، وان كانت المصلحة والمساومة فيها مرعيــة اكثر من المبادىء التي اعلنت من اجلها . ثم في نشره الدعوة العربيـة في اوروبا ، وان كان ذلك ضمناً من سبيل آل البيت الخاص . ثم في الثبات المدهش في مطالبته بحقوق العرب وان كانت عمومية الى حد الابهام .

ان في النهضة العربية مجد الملك حسين وانجاله البواسل الذين حاربوا في سبيلها، وان في الوحدة العربية المفازات التي ضاعت فهلكت فيها كل اماالهم . ومن المسؤول في ذلك ؟ ان في سيرة الملك حسين مـــا يجعل غوامض الموضوع ظاهرة جلية .

واليكها بالايجاز .هو حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون [1] ولد سنة ١٢٧٠هـ في الاستانة وجاء في السنة الثانية من سنه الى مكه مع والده وجده، ثم عاد والده الشريف علي الى فروق واقام فيها الى ان توفاه الله سنة ١٢٨٧ هـ وكان خلال تلك المدة عضواً في المجلس الاعلى ثم صار وزيراً وعُين عضواً في مجلس شورى الدولة فزاره ابنه الحسين وكان لا يزال في طور الفتوة ، فنشأ هناك في بيئة تركية عربية .

ثم عاد الى الحجاز بعد وفاة والده فأقام في كنف عمه الشريف عبدالله بضع سنين وتزوج بابنته عبديه خانم [2] كان الشريف عبدالله يومئذ امير مكة ،وهو مثل اكثر كبار الاشراف ربيب الاستانة التي اكسبته شيئاً من الكياسة الاسلامبولية واشياء من السياسة التركية .

---

(١) في ما تسمى الطبقة الرابعة ممن تولوا سدانة الكعبة ، التي تبدأ سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ م) وتستمر الى يومنا هذا ، فروع من البيت الهاشمي اسس كل فرع منها رجل كبير نبغ في قومه . فالفرع الذي أسسه في مطلع القرن الماضي من زمن ابراهيم باشا الشريف محمد بن عبد المعين بن عون سلف الشريف حسين هو صنو آل زيـــد الذي تغلب عليه . وهذان الفرعان اللذان كانا يتنازعان الامارة وسدانة الكعبة هما من بني حسن الذين نبغ فيهم جد الاشراف الاكبر محمد بن ابي نمي . ويتصل نسب ابي نمي بكبير اخر في السلالة الهاشمية هو قتادة بن ادريس . وقتـــادة من ولد موسى الجون . وموسى هذا هو ابن حفيد الامام الحسن بن علي بن ابي طالب وابن بنت الرسول .

(٢) هي ام ابنائه علي وعبدالله وفيصل . وبعد وفاتها تزوج الملك حسين بتركية من اسر الاتراك الكبرى هي ام ابنه زيد .

وكان للحسين اعمام آخرون تولوا الامارة بعد عبدالله، منهم الحسن الصالح، الذي قتل في جدة، وعون الرفيق المصلح الذي كان يميل في عقيدته الى الوهابية. فحمل حملته المشهورة على الاولياء، فأمر بهدم القبور والمقامات وكان جهاده يذهب حتى بقبر «امنا» حواء لولا تدخل القناصل وقولهم للشريف عون: لك ماتشاء في الاولياء، ولكن حواء ام الناس اجمعين، ونحن نحتج على هدم مقامها. فاقتنع الشريف بما قالوا وعفا عن ذلك المقام الاكبر[1]

وفي ايام الشريف عون ظهرت مواهب ابن اخيه الحسين فتلألأ ذكاؤه واشتد عزمه وكان في شعوره ومساعيه عربياً كريماً، غيوراً على قومه وبلاده، لجوجاً متهوساً. ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الاعلى. فراب الاستانة امره، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩ ه ليكون ضيف البادشاه واسيره مثل من تقدمه من الاشراف، فأشرب هناك روح السيادة العالية ومبادىء السياسة التي اشتهر بها المابين.

صعد الشريف حسين في الدواوين الى مقام المقربين من السلطان واسندت

(١) هذا المقام او القبر هو في جدة، طوله خمسة وسبعون قدماً. وامنا حواء مدفونة فيه. وقد شاهدت في البلاد العربية القبور الاخرى للعائلة الاولى البشرية وكل واحد منها يبعد مئات الاميال عن الاخر، قد يكون قايين فر هارباً بعد ان قتل هابيل فجاء البلاد التي تسمى اليوم عدن، ومات ودفن هناك، فان الصيادين يدلونك على كهف عال في الجبل الى اليمين وانت سائر من النواهي الى عدن القديمة — هذا قبر قايين! اما قبر ابينا ادم فقد سمعت به في النجف بل هو هناك وقل من يعرف ذلك من غير اهل الشيعة الذين يزورون المشهد اي مقام الامام علي. فهم اي الزوار، عندما يقفون تحت القبة المباركة امام ضريح الامام، يسلمون قائلين: السلام عليك يا علي وعلى ضجيعيك آدم ونوح. ابونا ادم مدفون اذن مع علي في النجف، وبين النجف وجدة حيث قبر امنا حواء ما يزيد على السبعمئة ميلاً. لا بأس بالاساطير اذا كانت تنير. اللهم لا تشتت هذه الامة العربية وان كثرت ذنوبها كما شتتت العائلة البشرية الاولى.

اليه رتبة الوزارة مثل ابيه ، وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة، فاستمر في وظيفته الى سنة ١٣٢٦ه اي اول سنة الدستور العثماني وكانت مدة اقامته هذه المرة في الاستانة سبع عشرة سنة ثم عاد الى ام القرى اميراً عليهـا ، وظل مخلصاً للدولة او متظاهراً بالاخلاص حتى السنة الثانيه من الحرب العظمى عندما اعلن الثورة وشهر الحرب على الاتراك.

ان ما يستغرب من امره في مدة امارته هو ان الحجاز في تلك الايام ايام راتب باشا السوداء، كان نهباً للناهبين، ومحط رجال السفهاء من الاتحاديين، فتعددت من فوضى الاحكام المظالم، وغدا العدل شريداً، والامن طريداً، فكان الحجاج والمطوّفون يُسلبون حتى في ظل البيت الحرام في رائعة النهار. ومع ذلك فلم يُغضب الشريف حسين اثمٌ من مآثم الترك يومئذ اكثر من خروجهم، وهو في نظره الاثم الاكبر، على التقاليد الاسلامية البالية. انها لعمري فضيلة فيهم يستحقون من اجلها احترام الامم المتمدنة .

اما الملك حسين فسجلها عليهم في رأس المفاسد والآثام وقد عدد منها في منشور الاستقلال الذي اصدره في ٢٧ حزيران سنة ١٩١٦ و٥ رمضان سنة ١٣٣٤ فجاءت قسمين، قسماً نشأ مع الدستور وكان ملازماً له فصبر جلالته ثماني سنوات دون ان يحرك ساكناً عليه، وقسماً نجم عن الحرب العظمى والسياسة التركية الجديدة . وقد ذكر من الذنوب الاخيرة في منشور الاستقلال «مخالفة نصوص الشرائع الاسلامية» و«اهانة النبي» و« التبديل في شريعة الوراثة الشريفة » و« المساواة في الحقوق بين المرأة والرجل» و « اعفاء الجنود الموجودين في دمشق والمدينة ومكة من المحافظة على الصوم » و « اصدار الاحكام التي فيها مخالفـة صريحة لنصوص سورة البقرة » وبعد ذلك احتج على اعدام الاحرار في سوريا .

ومنشور استقلال العرب هو اساس الوحدة العربيـة ! أوَلا يحق

لنا ، ان نتساءل نحن العرب غير المسلمين : ماذا يهمنا من نهضة اساسها سورة البقرة ؟ واي دخل لنا في ثورة اعلنت في ذاك السبيل ولتيك الاسباب الدينية ؟

على انه اذا انعمنا النظر في سيرة الملك حسين وفي ما له من الدهاء وغريب اساليب السياسة نتأكد انه اتخذ الدين او العاطفة الدينية في العرب سبيلاً الى تحقيق مقاصده .

لست انكر اخلاصه في احتجاجه على ما يعتقده بدعة في سلوك الاتحاديين . الا ان الحكمة في سياسته قصرت دون المراد . قال : النهضة العربية عززوها ، وهو عالم بان احد ركنيها مسيحيو سوريا الذين لا يستحسنون الصبغة الدينية فيها ، والركن الثاني مسلمو سوريا ، واكثرهم يعطفون على الاتراك ويستحسنون الاصلاحات الدينية التي يسعى الحزب الراقي منهم الى ادخالها في الاسلام . ليس ما يجلو الحقائق مثل الايام ، ولا ما يظهر كامن الشعور مثل الحوادث . ولعمري ان ملوك العرب لا يفلحون ، لا يفوزون فوزاً نحسن نتائجه وتدوم ، ما داموا يتخذون الطائفية وسيلة لتأدية سيادتهم ، وتحقيق مقاصدهم ، وتعزيز العصبية فيهم . والملك حسين ، في فوزه وفي خيبته ، برهان شريف على ما اقول .

انه ليصعب على من نشأ بين الاتراك ، وتشرب روحهم ، ومارس سياستهم عشرون سنة ونيفاً ، ان يتجرد تمام التجرد من آفاتهم ، او ان يحاربهم بسلاحهم اعلم به منه واقدر على استعماله . ولا يفوتنك ان الاتراك حاولوا مراراً ان يعلنوا على اوروبا الجهاد ولم يفلحوا ، فهل يفلح جهاد فريق من المسلمين على اخوانهم في الدين وفي هذه الايام ؟ انها لمن المحزنات . ومهما كان من انتصار العرب على الترك في الحجاز وفي سوريا باسم الدين اولاً فان انتصار الروح التركية على زعيم النهضة وكبيرها انما هو رأس الخيبة

والفشل في سياسته كلها .

يدعونه عبد الحميد الصغير . ولعمري اذا صح التشبيه فالتصغير لا يجوز ، لان الامور تقاس ببيئاتها والاشياء كلها نسبية بما فيها من خير او شر . ان مكة في نظر المسلمين لاعظم من فروق ، وقد قيل لي ان سجنها اظلم من اعماق البسفور . فما قول اهل جدة وقد شاهدت بعيني ولمست بيدي ذاك الخوف المستولي عليهم ؟ الخوف من رجل مكة الظالم، ومن سجن مكة المظلم ، ومن وحشة مكة عند المغضوب عليهم ، هي وحشة لا يتخللها بصيص من الرحمة او المعروف .

بين مكة ودَوْنِن استريت

رسول اللورد كتشنر – التجنيد في الحجاز – الشريف يعتزل السياسة– الفظائع في سوريا – احتجاج الشريف وجواب جمال باشا – فيصل في الشام – حيلة الشريف في انقاذه – رجوع فيصل الى المدينة – رسل الانكليز والمفاوضات – الشروط الخمسة – التأهب للوثوب – كتاب من السر ارثور مكماهون – الشريف يطلق بندقيته – اعلان الثورة – تسليم الحاميات في مكة وجدة والطائف – الشريف حسين ملك الحجاز – اعتراف الاحلاف به – تهنئة الاميرال الفرنسي – كتاب من مندوب بريطانيا العظمى في مصر – السر ردجينلد ونغات .

بينما كان جلالة الملك ونجلاه الاميران عبدالله وزيد جالسين ظهر يوم من الايام الى المائدة في الطائف دخل الحاجب يقول : غريب في الباب يبغي سيدنا . وكان الرجل رسولاً خفياً جاء الحجاز متذرعاً بالحج وهو يحمل الى الشريف حسين من مندوب بريطانيا في مصر اللورد كتشنر دعوة للانضمام الى مصاف الاحلاف. فابى يومئذ الشريف. ثم كتب اليه خلف اللورد كتشنر السر ارثور مكماهون في الموضوع نفسه فتردد وتودّد .

وكان لا يزال محافظاً على ولائه للعرش العثماني مع انه لم يحضر الى المدينة ليسلم على انور وجمال عندما زاراها في طلائع سنة ١٩١٦ . وقد كان نصح الاتراك ان لا يدخلوا في الحرب العظمى ،ولكنه بعد دخولهم عرض عليهم المساعدة بشروط منها العفو عن المسجونين السياسيين في سوريا والعراق ، واعطاء البلدين نوعـــا من الاستقلال بانشاء حكم لا مركزي فيهما. وعندما رفض الترك طلبه والحوا عليه– رغم ذلك– بالتجنيد في الحجاز راح الى قرية خارج مكة يعتزل السياسة الى حين .

ثم حدثت الفظائع في سوريا، ورأسها شنق احرار العرب ،فاثارت غضب الشريف فكتب الى جمال باشا يحتج على اعماله القاسية ،فأجابه جمال ان يتقي نفسه بدل ان يدافع عن سواه. وكان الامير فيصل في الشام يومئذ فخاف الملك عليه واحجم عما كان يدبره من امر الثورة الى ان يخلص ابنه من الخطر هناك. فكتب الى جمال باشا يقول انه مهتم بالتجنيد وسيشترك العرب مع عساكر الدولة وحليفتها المانيا في الزحف على ترعة السويس اللهم اذا اسرع فأرسل الامير فيصلاً الى الحجاز لهذه الغاية . فجازت الحيلة على جمال باشا وجاء الامير فيصل الى المدينة ومعه عشرة الاف ليرة واربعة الاف بندقية .

وكان الانكليز في اثناء ذلك يواصلون مفاوضاتهم السياسية مع الشريف المتردد المتودد ، فارسلوا اليه المستر ستورس الذي صار بعدئذ حاكما على القدس والكرنل هوغارث ثم الكرنل لورنس فاسفرت المفاوضات كلها عن الشروط الخمسة التي تم الاتفاق عليها في الشهر الاول من ١٩١٦ وهذه هي :

اولاً : تتعهد بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها ، حدودها شرقا خليج فارس، وغرباً بحر القلزم والحدود المصرية والبحر المتوسط ،وشمالاً حدود ولاية حلب والموصل الشمالية الى نهر الفرات ومجتمعة مع الدجلة الى مصبهما في خليج العرب، ماعدا مستعمرة عدن فانها خارجة عن هذه الحدود. وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والاتفاقات التي اجرتها بريطانيا العظمى مع اي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بانها تحل محلها في رعاية وصيانة حقوق تلك الاتفاقيات مع اربابها امراء كانوا او من الافراد.

ثانيا، تتعهد بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من

اي تدخل كان باي صورة كانت في داخليتها ، وبسلامة حدودها البرية والبحرية من كل تعدٍ ، اياً كان الشكل ، حتى لو وقع فتنة داخلية من دسائس الاعداء اومن حسد بعض الامراء تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع تلك الفتنة . وهذه المساعدة في الفتن والثورات الداخلية تكون مدتها محدودة اي الى حين تتم للحكومة العربية تنظيماتها المادية .

ثالثاً : تكون ولاية البصرة تحت مشارفة بريطانيا العظمى الى ان تتم للحكومة الجديدة المذكورة تنظيماتها المادية . ويعين من جانب بريطانيا العظمى في مقابلة تلك المشارفة مبلغ من المال يراعي فيه حالة الحكومة العربية .

رابعاً : تتعهد بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاج اليه ربيبتها الحكومة العربية من الاسلحة والذخائر والمال مدة الحرب .

خامساً : تتعهد بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين او من نقطة مناسبة في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن بلاد ليست مستعدة لها .

وظل الشريف حتى بعد هذا الاتفاق يعد ويسوف الانكليز ويعد" العدة سراً للعمل الخطير ، يتأهب للوثوب . وكان قد كتب الى المندوب السامي في مصر كتابا يعلمه بذلك فاجابه السر آرثور مكماهون في كتاب مؤرخ ١١ اذار سنة ١٩١٦ (٦ جمادى الاول ١٣٣٤ ه) يقول فيه :

« قد تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ عن يد رسولكم الامين وسررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوون اتخاذها وترونها موافقة للاحوال الحاضرة . ان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى تجيزها . ويسرني ان اخبركم بان حكومة جلالة الملك وافقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبتم بالاسراع فيه وفي ارساله هو مرسل مع

رسولكم حامل هذا . وستحضر الاشياء الباقية بكل سرعة ممكنة . فتبقى في بورت سودان تحت امركم الى حين ابتداء الحركة واعلامنا رسمياً بها . وقد انتهت الينا اشاعات مؤداها ان اعداءنا باذلون الجهد في اعمال السفن ليبثوا بوساطتها الالغام في البحر الاحمر ، ولالحاق الضرر بمصالحنا هناك . فنرجوكم ان تسرعوا باخبارنا اذا تحقق ذلك لديكم » .

مرت اربعة اشهر على الاتفاق البريطاني العربي قبل ان يطلق الشريف حسين بندقيته من قصر الامارة بمكة . وكان الحجاز يعاني من شدة الحرب واهوالها اكثر من سواه من الاقطار العربية . فسدت ابواب البحر ، وانقطع الحجاج عن الحج ، ونفد القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس وهلك مئات من الجوع . وقد قال جلالة الملك انه ظل واهل منزله سنتين يأكلون الدُخن .

مرت الاربعة الاشهر وكان قد اصبح الامير فيصل في مأمن من الأعداء ولديه فوق ذلك من مالهم وسلاحهم ما لا يستهان به . وكانت الذخائر والسلاح والمال بدأت ترد عن طريق بورت سودان من المصدر الذي لا تنفد عداته وقواته .

فتوكل الشريف على الله . ونهض في صباح اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ ﻫ (٢ حزيران ١٩١٦ م) قبل الفجر وبيده بندقيته اطلقها طلقة واحدة كان لدويها صدى في جدّة والطائف والمدينة . أعلنت الثورة في مكة وجدة في اليوم الاول ، وفي الطائف والمدينة في اليوم الثاني . وكان ما لديه من القوات العسكرية موزعة متأهبة كلها ، فحاصر الامير زيد بجنوده قلعة « اجياد » بمكة ، وهجم الامير عبدالله على الطائف ، وكان الشريف محسن قائداً في جده ، والاميران علي وفيصل ، وقد خرجا من المدينة بجمعان العربان ليحاصر الترك فيها .

وقد برهن ابناء الشريف خصوصاً صغيرهم الامير زيد على بسالة فيهم اظهرها القتال، وعززها الجلد في النضال ولم يمر شهر على حصار قلعة «اجياد» التي كانت تصب نارها على مكة، وخصوصاً على قصر الامارة فيها، والشريف في غرفته الخاصة في ذاك القصر يدير الحركة ولا يبالي بشظايا القنابل التي كانت تخترق السقوف والجدران – لم يمر شهر حتى كلل الحصار بالنصر. سلمت «أجياد» في ٤ رمضان . ثم استولى الامير عبدالله على الطائف في ٢٦ ذي الحجة من تلك السنة .

وفي ٢ محرم ١٣٣٥ هـ (٣١ تشرين الاول ١٩١٦ م) بويع الشريف حسين بالملك، وفي الشهر التالي اعترفت به دول الاحلاف الكبرى ، اي انكلترا وفرنسا وايطاليا، ملكاً على الحجاز، وجاء الاسطولان الانكليزي والفرنسي الى جدة يحملان الى جلالة الملك تهانىء تلك الدول احلافه ، فخطب في حضرته اميرال الاسطول الفرنسي ودعاه باعظم امراء العرب.

قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة وذاك الاطراء من الامـيرال الفرنسي ولكنه لا ينسى ما خُط على الورق وما لديه من الرسائل التي كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة .هوذا كتاب من خلف السر آرثور مكماهون في مصر المندوب السامي السر ردجينلد ونغت ، مؤرخ ١٩ نيسان سنـة ١٩١٧ م و ٢٧ جمادى الثانية ١٣٣٥ هـ وفيه ما يلي :

« اؤمل ان لا يبرح من بال جلالتكم ان الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل ، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود . »

الوحدة العربية [1]

رأس البلية فيها – معاهدة سيكس بيكو – كتاب السر ادواردغراي الى سفير فرنسا في لندن – بشرط ان تكون المدن الاربع ، حمص وحماه والشام وحلب ، للعرب – تنازل الملك عن جزء من سوريا – وماذا في شبه الجزيرة – قبلة العرب الفاتحين – الاهتمام بسقف البيت قبل الاساس – فضل الحسين قبل أن صار ملكاً – طموحه – عداوه لامراء العرب – الخطل في سياسته وثباته فيهما – امانيه واماني ملوك العرب–الشرط الثاني من الشروط الخمسة–حلفاء بريطانيا العظمى – خداع وكلائها او جهلهم – سذاجة العرب – دولة سورية هاشمية – تنازل الملك وانسحابه – « لا أبغيها » .

انه ليصعب على من انعم النظر وكان منصفاً ان يقول من هو راس البلية في القضية العربية. واذا ما بغينا الحقيقة كل الحقيقة في الموضوع، اي موضوع الفشل ، يبدو امامنا في اربعـــة اجزاء تجسمت في انكلترا وفرنسا، ومن تولى الزعامة من العرب ، ثم العرب انفسهم . وراس البلية اذن تنين ذو اربعة رؤوس .

ولكن هناك عاملاً واحداً يعدمن اهم اسباب الخيبة والفشل يشترك معه عامل اخر، الا وهو السياسة الدولية السرية. لنجتنب التعميم. ان المعاهدة السرية –التي كانت سرية – بين فرنسا وانكلترا ، اي معاهدة سيكس بيكو ، هي من اهم اسباب الفشل في تحقيق الوحدة العربية .

وقد تم عقد هذه المعاهدة في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ اي قبل ان اعلن الشريف حسين الثورة على الترك بسبعة عشر يوماً. فبينما كان السر ارثور مكماهون يفاوض مكة ويقطع للعرب العهود كان المسيو بيكو والكرنل

---

(١) لهذا البحث لاحق في خاتمة الكتاب .

سيكس قد اتما عملهما المشؤوم فقسما البلاد السورية الى مناطق سياسية اقتصادية ، زرقاء وحمراء وسمراء ، وهي كلها اليوم اذا اعتبرت مصلحة البلاد مناطق سوداء .

على ان الحكومة الانكليزية لم توافق على تلك المعاهدة دون تردد او دون شرط . فقد كتب السر ادوارد غراي ناظر الخارجية يومئذ الى سفير فرنسا في لندن المسيو كمبون كتاباً مؤرخاً ١٥ ايار سنة ١٩١٦ يقول فيه ان حكومة جلالة الملك توافق على المشروع (مشروع التقسيم) اكراماً لمصالح الاحلاف العامة بشرط ان يشترك العرب بالحرب ويكون لهم المدن السورية الاربع اي حمص وحماة وحلب ودمشق .

وكان جلالة الملك حسين قد طلب من الانكليز البلاد السورية كلها ، ثم تنازل عن مرسين واسكندرونه ، واستمر يطالب بالمدن الاربع والسواحل ايضاً . ثم اعترف للانكليز كما يظهر من الشرط الثالث في الشروط الخمسة بالمشارفة — وقد ترجمها ترجمان الديوان الهشمي بالاشغال — على ولاية الموصل . نعم ان الشرط ينص حرفياً على الاستيلاء مشاروة كان ام اشغالاً . والاستيلاء يبدأ غالباً بالشروط وينتهي بالاطلاق .

ايجوز ان نقول اذن انه لولا المعاهدة السرية بين فرنسا وانكلترا التي تقدمت المعاهدة بين انكلترا والشريف ، لكانت تحققت اليوم الوحدة العربية ؟ ليس من ينكر ان تلك المعاهدة قضت على القضية في الشمال ، في سوريا وفلسطين ولكنها لم تصل بكل اسبابها المدمرة الى شبه الجزيرة . واني في هذا القول لا انطق بغير نصف الحقيقة .

اما نصفها الآخر فهو ان الشريف لم يكن ليهتم بشبه الجزيرة يومئذ اهتمامه بسوريا وفلسطين ، ولا جزءاً من ذا الاهتمام . وماذا في شبه الجزيرة ، اذا مال بوجهه اليها ، غير الامراء الاعداء ، والقبائل المتمردة ، والصحارى

والقفار ؟ اما سوريا وفلسطين، قبلة العرب الفاتحين، فينبغي ان تكون جزءاً من الحجاز او يكون الحجاز جزءاً منهما. لا فرق عند الشريف. وفي ذلك الانضمام تتحقق الوحدة العربية .

افلا ترى في هذه الخطة ان صاحبها يهتم بسقف البيت قبل اهتمامه بالاساس؟وليس الاساس ايها العربي الغيور في سورياوفلسطين،بل هو في نجد واليمن وعسير ، في الامراء الاعداء والقبائل المتمردة . فلو تمكن الملك حسين من ضم كلمتهم الى كلمته ،وجمع شتاتهم تحت رايته،لكانت له سيادة تذلل عندها عقبات الشمال ، وتزول الوان المناطق السياسية كلها . ولكنه ، وقـــد فشل في سوريا وفلسطين ، امسى ولا نفوذ له يذكر في شبه الجزيرة .

اقول هذا وانا عالم بما لجلالته من الفضل في سبيل القضية قبل ان صار ملك الحجاز. وانه في ثباته ومضائه ، في دهائه وابائه ،عندما كان يمهد السبيل الى العمل الخطير ،ذاك العمل الذي لم يقدم عليه الا بعد ان نال من دول الاحلاف مطالبه المادية كافة ،من سلاح وذخيرة ومؤونة ومال،واخذ منهم الوعود بتحقيق مطالبه السياسية كلها – انه ، وان كان مبدأه المساومة، لجدير بالاعجاب والاجلال .ولكنه بعد ان صار ملكاً طمع بان يكون ملك العرب . ولم يكن في اساس عمله ما يجيز مثل ذا الطمع . فهو فوق احتقاره امراء العرب الحاكمين اضمر لهم العداء كما يظهر من الشرط الثاني في الشروط الخمسة . ومهما كان من عزمه وثباته في الدفاع عما يعتقده حقاً، فان الخطل في سياسته العربية تقدم السداد في ثورته الحجازية .

وما الفائدة اليوم من ضجة تملأ الدوائر السياسية احتجاجاً ، وقد انكشف الستار ولم يبق في القضية سر يستثمره الدهاء؟انه لوهم قديم ُطلي بذهب حلم ٍ جديد ولكن الملك حسيناً اصلب ساسة الارض اليوم رأياً

وايبسهم عوداً .فهو وان شابت الاوهام ، وهرمت الاحلام ، لا يطوي العلم ولا يكسر الحسام . وقد يموت شاهراً سيف السياسة والدهاء على اعدائه الحقيقيين والوهميين في سبيل المجد الهاشمي ، والوحدة العربية.ما اعظمها وما اجملها ثقة ، تلك الثقة بالنفس .

اجل، ومن يطلب ما طلبه الملك حسين من دولة بريطانيا غير رجل طماح ثقته بنفسه اعظم من ثقة الانكليز بانفسهم ؟ ومن من امراء العرب الذي يعرف بعض الشيء عن زملائه واخوانه في الجزيرة يعلل النفس بتحقيق تلك الاماني ، اماني الشريف ، واماني الملك، واماني المنقذ الاكبر ؟ وهي كلها واحدة لا تتغير .

ولكنها لا تتفق مع اماني الآخرين . قلت انه اضمر لهم العداء في الشرط الثاني من شروطه الخمسة . فقد جاء فيه ان « لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الاعداء او من حسد بعض الأمراء » تتعهد بريطانيا ان تساعده عليهم «مادة ومعنى» . ولا ريب ان ابن سعود والأدريسي كانافي ذهن الملك عندما امر وزيره ان يكتب هذا الشرط ، ولا ريب ان معتمد بريطانيا كان يدرك ذلك لما بين الملك وابن سعود والادريسي من العداء القديم . ولكن سلطان نجد وسيد عسير من اصدقاء بريطانيا واحلافها ، فكيف يمكنها ان توافق على شرط قد يوجب عليها محاربتهما من اجل الملك حسين ؟

وكيف يستطيع الانكليز ان يقوموا اليوم بشروط اتفاق نسخته سلفاً معاهدة سيكس بيكو ؟ان تلك الصفقة لصفقة يائس مستهتر وان في تلك الشروط دليلاً على سذاجة في المنقذ الاكبر مهما كان دهاؤه السياسي. وان في قول بريطانيا بها دليلاً على جهل في معتمدها، او حماقة في رُسلها ، او خدعة في حكومتها مهما كان من قول رجالها في برّها

بالوعود ومحافظتها على العهود .

قد أدرك جلالة الملك حسين حتى قبل انتهاء الحرب وعورة المسلك الذي سلكه في تأسيس دولة عربية ،يريدها اولا سورية ، وقد لا يريدها الا هاشمية . فكتب قبل انتهاء الحرب بثلاثة اشهر الى نائب ملك بريطانيا في مصر كتاباً يقول فيه : «فمتى اضفنا عليه تظاهر عجزي بعدم حصول ما كان يؤمل من النتائج يتحتم عليّ الانسحاب من الامر والتنازل عنه» . . . ثم قال وهو لا يزال يصر على الشروط الخمسة : « فاذا كان لا بد من التعديل فما لي سوى الاعتزال والانسحاب . . . وانها (اي بريطانيا) لا ترتاب في انني واولادي اصدقاؤها الذين لا يتغير ولاؤهم واخلاصهم . . . ثم تعينون البلاد التي يستحسن اقامتنا فيها للسفر اليها في اول فرصة .

ولا تزال هذه لهجة الملك ولا يزال هذا قصده منذ ذاك الحين الى يوم تشرفت بمقابلته في جدة ، وقد قال لي يوم ودعته ، وهو يقبض على لحيته ، «انني لا ابغيها (اي الزعامة) لا ابغيها . ليتفق امراء العرب عليها وانا اعتزل . ليتفقوا على تأييد الوحدة العربية فأنسحب اذا شاءوا واشاركهم بما يتفقون عليه تابعاً كنت او متبوعاً . اقول ، يا حضرة النجيب ، تابعاً كنت او متبوعاً . »

وهذا ما وطدني يومئذ احد المقاصد من رحلتي ، فشجعني في رسالتي الوطنية العربية . وحبب اليّ خدمة جلالته في تمهيد السبيل الى التفاهم بينه وبين امراء العرب [1]

---

(١) في تاريخ نجد وملحقاته للمؤلف ، تتمة تاريخ الملك حسين .